الدين والإنسان
والعلاقة مع الغرب

الدين والإنسان والعلاقة مع الغرب(*)

● *صدر لكم أخيرا عن دار الجديد البيروتية كتاب تحت عنوان بيم موج ــ المشهد الثقافي في إيران ــ مخاوف وآمال. والمستفاد من عنوان الكتاب أنّه موجّه إلى الداخل، مداورة، أي على ما يقول المثل العربي: «إياك أعني واسمعي يا جارة!».*

كذلك فسؤالي هو التالي: فيم كان اختياركم هذا الطريق المباشر؟ وهل بلغ المشهد الثقافي الراهن في إيران حالة تضطركم إلى هذا النوع من الكتابة؟ وكيف تشخصون حالة هذا المشهد اليوم؟

بسم الله الرحمن الرحيم

وأهلا بكم أولا، وبعد، فإنني قد كتبت هذا الكتاب بفصوله الخمسة التي عقدتها في غضون اثنتي عشرة سنة، وكانت في أساسها محاضرات ألقيتها في مناسبات مختلفة، آخرها منذ خمس سنوات؛ منذ ذلك الحين تبدّل الكثير من الأمور من تلقاء ذاته، وإن بقي جوهر

(*) وقائع الحوار المتلفز الذي أجرته محطة «المنار» اللبنانية مع السيد محمد خاتمي خلال زيارته بيروت في ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٩٦.

المطالب التي كانت مثار بحثي، قائمًا إلى الآن. ثمّ إن بعض عنوان الكتاب، «المشهد الثقافي»، لأوسع بكثير مما تناولت في هذه المحاضرات، ناهيك من أن ما لدي من أفكار في هذا الشأن لم يتح لي استعراضها جميعًا على مدار فصول الكتاب، وهذا كله فضلا عن وجود مفكرين أعترف لهم بالفضل والسبق في هذا المجال.

فلنعترف أن وراء الحديث عن دور الدين في الوقت الحاضر، وعن دور الإنسان في إدارة وتوجيه مصيره، وعما بين الدين والحداثة والتجديد والتجدد، وما بين الحكومة الدينية والليبرالية، وما بين الدين والديمقراطية من نسبة، فلنعترف بصدق أن وراءه أسئلة تهم عصرنا. وسواء شئنا أم أبينا، فهذه الأسئلة مطروحة، وإذا لم نبحث فيها ولم نلق عليها الضوء نكون غائبين عن الساحة الثقافية. فالإنسان هو ابن عصره، ولا بد له من الإجابة عن أسئلة زمانه، ونحن لا بد لنا من الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها الآخرون وتهمهم. ولا بد لنا أن نكون منطقيين في إجاباتنا، لأن إجاباتنا هي الشهود على حضورنا في زماننا. فالحضور في الزمان لا يكون بالجسد من دون الفكر.

والأسئلة ـ المسائل ـ التي نتناولها في هذا الكتاب إنما هي جزء صغير جدا من الأسئلة المطروحة في زماننا، عن الدين بخاصّة، على أثر انتصار الثورة الإسلامية الكبير في إيران.

محبّو هذه الثورة ينتظرون النموذج الذي سيسعها تقديمه إلى العالم؛ وأما الأعداء فيخامرهم الوهم بأن هذه الثورة لا إجابات عندها عن أسئلة العصر. صحيح أن المحاضرات التي تضمنها الكتاب

توجهت إلى مستمعين إيرانيين في الدرجة الأولى، ولكن جوهر ما جاء في الكتاب ليس وقفا على إيران وحدها بل هو، في اعتقادي، مثار اهتمام كل من ينشد الحقيقة أينما وأنى كان؛ ومن هنا اعتقادي بحيوية هذه المباحث يوم ألقيت في إيران، وحيويتها في يومنا هذا أيضا.

● ***يبدو لي أن لكم في كتابكم قدوة حسنة في من سلف، فالقسم الأول منه يدرس شخصيات كشخصية الإمام الخميني والشهيدين مطهري والصدر، في حين يعرض القسم الآخر «المشهد الثقافي» كما جاء في كتابات هؤلاء الأفاضل، الذين تعتبرهم حججا، والذين تناولت كتاباتهم؛ فهل يمكن لنا، مثلا، اعتبار الشهيد مطهري وغيره، من مؤسسي ما يعرف الآن باسم «علم الكلام الجديد»؟ وعلام يدل هذا المصطلح في حياة إيران الثقافية الراهنة؟***

لا شك في أن للعلماء الثلاثة الكبار المذكورين في الكتاب دورا جد مهم فيما يتعلق بمستوى التطور وبمستوى التجديد في زماننا الحاضر. فللشهيدين مطهري والصدر أفكار نيرة ومهمة في هذا المجال، فأفكارهما الأساسية تتناول أصلا التغيير الفكري للعالم الإسلامي.

ولا شك أيضًا في أن الإمام الخمينيّ صاحب مدرسة فكرية وثقافية على النحو عينه. ولقد أحدثت هذه المدرسة الكثير من التغييرات في

هذا المجال. إن لهؤلاء العلماء موقعهم الضخم في هذا المجال، ولا بد لكل باحث في هذا الخصوص من أن يرجع إليهم إذا ما أراد الحقيقة في بحثه.

أمّا الحُجّة، فتعني أن رأي الإنسان العالم بالنسبة له حجة في العمل، ولكن لا سبيل للكلام عن الحجة في مقام الفكر. وذلك لأن كل مفكّر يرى أنه حجة، اللهم إلا إذا كان الكلام عن المعصوم، فالأمر يختلف حينذاك.

المهمّ أنّ هذا كله في حدود الذي خاطبنا به هؤلاء العلماء، ولذلك فإنني لا أعتقد أن ما قلته عند تناولي الشهيدين الصدر ومطهري هو آخر كلام يقال في الحوزة الدينية. لقد كانا عالمين قاما بخطوات جد مهمة، ولذلك فهما في مقام إجلال. على أن باب السؤال، بالنسبة إلى ما طرحاه من أفكار، سيظل مفتوحا أمام بقية المفكرين.

وأمّا فيما يتعلق بما تفضلتم به من وصف الشهيدين مطهري والصدر بأنهما قد أسّسا علم الكلام الجديد الذي يدور عنه الحديث في إيران، فوصف يلزمه بعض التوضيح من قبلنا.

أعتقد أن علم الكلام الجديد قد بلغ الساحة الفكرية في إيران من قبل أن يتناوله الشهيدان مطهّري والصدر. فالكلام الجديد يطلع، لا ريب، من طبيعة أسئلة جديدة تطرح على الساحة الفكرية والثقافية. ومثل هذه الأسئلة قد طرح منذ قرابة قرن ونصف القرن. وأذكر بأن الردود والإجابات التي توالت عن هذه الأسئلة قد اتسمت في ذلك الحين بالانفعال، ولذا كان الكثير منها تقليديّا صادراً عن تقليديّين،

وكانت ثمة أيضا فئة أولى تصدت للرد واقتصر عملها على ما طرحه الغرب من أسئلة وإجابات، ولكن، وفي محصلة الأمر، كانت هناك فئة اتخذت خطا وسطا بين الفئتين. وكان السيد جمال الدين الأسدآبادي، (الأفغاني)، مثلا قد كتب منذ ما يقارب القرن ردّا على المادّية والطبيعية، في حين سعى العلامة الطباطبائي وغيره، قبل الشهيدين مطهري والصدر، إلى الإجابة عن الأسئلة الجديدة إجابة جديدة. ناهيك من أن اهتمام الشهيدين مطهري والصدر الفكري كان بحكم تصديهما للرد على الشيوعيين والماديين، منصبا على كل ما له علاقة بهذا المجال، أي الرد على استفسارات وانتقادات الماديين الديالكتيكيين والشيوعيين، ولم يهتمّا كثيراً بما يطرح اليوم في العالم الليبرالي من مسائل كلامية جديدة. بيد أن بوسعنا القول إنهما قد فتحا الباب واسعا على محيط فسيح يجدر بالعلماء وطلبة العلم الخوض فيه، طلبًا للحقيقة والمعرفة.

وعليه، فإن الكلام الجديد لم يبدأ بالشهيدين مطهري والصدر. وليس إيضاحنا هذا إنقاصا من قدرهما ولا افتئاتًا على ريادتهما، ولكننا نقول ذلك لأن الأمر أعم من أن يقتصر على موضوع واحد، وأشمل من أن يكون ردّا على مشكلة واحدة. فهو، وكما أسلفنا، إنّما ينجم عن طبيعة أسئلة جديدة؛ وهذا يدخلنا لا ريب في مسألة العلاقة مع الغرب، حيث يبدو لي أن أكثر المفكرين المسلمين، ممن انكبوا على المسألة، لم تتجاوز إجاباتهم الموقف الرُّشدي، (نسبة لابن رشد)، وإن توجه كثير من العلماء، ومنهم السادة الأفاضل الذين ذكرنا، بنقد لاذع للفلسفة الغربية والمادّية، ودخلوا في حوار

واسع معها، كما فعل الشهيدان مطهري والصدر. ولكن ما العمل؟ **أنعلن إفلاس الغرب ثم نأتي إليه نستجديه حتى علف دوابنا؟ أم نعي أن إفلاس الغرب يضع على عواتقنا مهمة إنقاذ البشرية من شيخوخة الحضارة التي تعيشها الآن؟ ما العمل في علاقتنا مع الغرب؟ أنأخذ منه أم نعطيه؟**

مسألة إفلاس الغرب تحتاج إلى بحث نظري دقيق، فالعلماء الذين قالوا بذلك يجب استيضاحهم عن الجهة أو المسألة التي رموا إليها حين قالوا بإفلاس الغرب. فحين ينظر المسلم المؤمن إلى مبانيه الفكرية، وحين ينظر إلى مباني الغرب الفكرية، يلاحظ تفاوتًا بينهما، فالمسلم المتدين يبني فكره على الأسس التوحيدية التي ترى أن هذا العالم قد خُلق من قبل عالم قدير مطلق، في حين أن في الغرب فئتين لا تعتقد أولاهما بهذا الوجود التوحيدي، وأما الثانية فتعتقد به ولكنها تنظر إليه كوجود منعزل.

وأنا أعتقد أن البنيان أو الأسس البنيوية التي يمتلكها المتديّنون متينة، وأن الأسس التي يمتلكها الغربي في مقابل ذلك، ضعيفة، وإن كان متطورا على المستوى المادي، إلا أنها جولة في حرب. على أن هذا لا يعني أننا نمتلك القوة، وأن الغرب لا يمتلكها. فالغرب صاحب قدرات اقتصادية ومادية وتقنية، في حين أن المسلمين أو الشرقيين بعامة يفتقدون، وللأسف، هذه القدرات، أو يمتلكون حدّا أدنى بكثير منها. ومن هنا فإن مؤدى الآية الكريمة: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ (الأنفال: ٦٠)، هو أنّ علينا السعي لامتلاك تلك القدرات.

إن الإنسان عندما يبلور تصوّرا أو نظرة جديدة إلى شئون الحياة يرسي بالتالي أسس حضارة جديدة. وكمثال على ما نقول، نذكّر بأن المسلمين بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، وبنتيجة ما عرفوا من علوم كثيرة، امتلكوا قراءات جديدة، وطلعوا باستنتاجات جديدة عن المادّة التي بين أيديهم، فأوجدوا حالتئذ حضارة جديدة نتيجة قراءة جديدة للنصّ القرآني الكريم. وهذه الحضارة أو التمدّن نَصفُها بـ «الإسلامية»، وهذا صحيح، ونصفها بـ «القرآنية» وهذا صحيح أيضًا، بيد أنّ مَنْ أسّسها هو الإنسان، وهي قد زالت الآن واضمحلّت، فإذا كان ما قد قيل في ذلك العهد هو عَيْنُ الإسلام والدين وليس قراءة أو تصوّرًا له كما أقول، فإنّ معنى ذلك أنّ علينا القول بأن الدين أيضًا قد زال!

بناء عليه لا نتحرّج كمسلمين من القول في هذه الفترة بأنّ علينا العودة إلى النصّ الديني، إلى القرآن الكريم، ومن خلال ما نطلع به من أسئلة جديدة وما يعترضنا من حاجات جديدة يمكننا إقامة حضارة جديدة تلائم هذا العصر. فالحضارة الإسلامية غير موجودة في عصرنا هذا، بل توجد حضارة غربية، ابتدأت منذ أربعة قرون بالتسلّط علينا وبالتحكّم في تفاصيل حياتنا. انظر إلى هذا الجهاز الذي يُسَجّل صوتي، مثلا، إنه من ثمار الحضارة الغربية!

ولكن، وما دمت أؤمن بأن هذه الحضارة هي أمر بشري، فإنني أرى حتمية نهايتها أيضًا، ولذا فإنني أقول للمسلمين الذين يلاحظون الفرق في الأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية والأسس التي تبنى عليها حضارتنا، ويرون خللاً في مباني تلك الحضارة، أقول لهم

بحتمية أن يكون كل معطًى فكري أو ثقافي مفيداً للاحقه. فالحضارة الغربية قد استفادت كثيراً من الحضارة الإسلامية، وهذه بدورها استفادت من الحضارات الأخرى كاليونانية والفارسية وغيرها. وعليه فالمسألة الأساسية الآن هي أن حضارة هذا العصر هي الحضارة الغربية، ونحن كمسلمين قد افتقدنا حضارتنا القديمة.

فإذا أردنا أن نكون فاعلين ونشطين في عصرنا هذا، فهل علينا الرجوع إلى الحضارة الغابرة، أي إلى ما قبل قيام الحضارة الغربية، (وهو الرجعية بعينها)؟ أم ينبغي علينا الذوبان والتلاشي في الحضارة الغربية؟ أم أن علينا الذهاب بعيداً، أي إلى أبعد مما وصلت إليه الحضارة الغربية؟

إنها سبل ثلاثة لا غير ولا أكثر! التقليديون يريدون العودة إلى الماضي، والمبهورون بالغرب يقولون بالذوبان في الفكر الغربي، ولذا فإنني أؤمن بأن على العلماء والمفكرين الذين تضطرم أفئدتهم غيرة على العلم وعلى دينهم وشعبهم، عليهم أن يذهبوا إلى أبعد مما وصلت إليه الحضارة الغربية. على أن عملا كهذا يحتاج إلى نظرة جديدة إلى أصولنا وأسسنا ومنابعها في القرآن الكريم والسنّة. ويقتضي منّا التعرّف على حاجاتنا ومسائلنا في هذا العصر. وأنا حين أقول بوجوب الذهاب إلى أبعد ممّا ذهب الغرب، فإنني أعني أن علينا امتلاك كل معطًى قدّمته حضارة الغرب والاستفادة منه، وأن علينا أن نرى على ضوء معطياتنا وأسسنا ماذا أعطى الغرب وإلام افتقد. هذا هو المقصود من الاستفادة من الغرب، طالما أن مسئوليتنا هي استشراف ما بعده وما هو أبعد منه.

● *حضارة الغرب السائدة الآن، والتي تعيش شيخوختها، تمتاز بما يسمى بـ«الحرّية» مقابل ما تعرفه حضارتنا تحت اسم «التقوى»، فهل تصح في رأيكم المعادلة التالية: إسلام - غرب/ تقوى - حرية؟*

نظرًا لضيق الوقت سأجيب عن القسم الثاني من السؤال:

التقوى أساس من الأسس التربوية والتعليمية للتديّن بعامّة وللإسلام بخاصّة. ولكن تَجبُ قراءة التقوى قراءة خاصّة، فلقد كان لها وعلى طول الحضارة والتاريخ الإسلاميَّين، معنًى فرديّ؛ فالشيعة مثلاً لم تكن لديهم حكومة، وكان للسنّة حكومة، ولكنها كانت بيد بعض المُتَسَلّطين، فكان أن ظلّ سواد السنّة الأعظم معزولاً عن الحكومة، وهذا يعني أن ليس لدينا تجربة «تَقْوَوِيَّة» اجتماعية في تاريخنا. وإن أبشع أنواع الظلم قد طال الكثير مَن الناس على مدى من التاريخ الإسلامي المديد.

عندما نقول إن الغرب بلا تقوى وإننا نمتلك التقوى، فإن علينا أن نحدد معنى التقوى. فالتقوى سلوك إنساني تجاه الله سبحانه وتعالى، ولها حالتئذ دلالتها ومعناها، ولكنها أيضًا توجد على مستويات أخرى. فهي في المجتمع سلوك الإنسان تجاه الإنسان، وعليه فإن علينا التأمل في هذه العلاقات لنتمكن من تظليل مفهوم التقوى على هذه المسائل والجوانب. ولكن يمكن طرح المسألة بشكل آخر؛ فالغربيون يعتقدون بأن حضارتهم تقوم على الحرية، ولكن الحرية مفهوم جديد. والحرية، وهي ترجمة للفظ «Liberty»، وقبل

زمن غير بعيد لم تكن بمفهومها السياسي متداولة في الغرب. وفي المقابل، ومن الناحية النظرية والكلامية عرف المسلمون لفظ«الفلاح» كما ورد في نصوصنا الدينية، ويعني التحرر من القيود الداخلية ومن هوى النفس ومن الشهوات وعبادة الدنيا.

وقد ذهبت بعض الفرق إلى اعتبار الفلاح نبذًا للدنيا، بل وتَرْكًا للحياة المدنية، وقد سمّى الفارابي هؤلاء بأصحاب «المدينة الجاهلة»، وقال بأن على الإنسان أن يسعى للسعادة، ولكن الطريق إليها تمر، عنده، عبر المجتمع المدني، وإذن فالحرية، بمعناها الليبرالي هي نقيض ما يعنيه «الفلاح»، فالليبرالية تعني التحرر، ولكن بأيّ معنى؟ بمعنى التحرر من القيود الخارجية لا الداخلية، وبمعنى أنه لا ينبغي أن يحكم الإنسان سوى نفس الإنسان. ولما كان الإنسان، بحسب تعريفه، كائنًا ذا ميول وغرائز وتصوّرات، فإن حريته تعني عدم وضع حدّ لتلك الميول والغرائز من الخارج. والإنسان الحر هو الذي يعيش وفق ما يناسبه ويرتئيه. ولليبرالية حد وهو حرية الآخرين، ولا شك في أن لهذا نتائج طيبة منها أن الإنسان يكون مسلطا على مصيره، وأن الحكومة تكون خادمًا للناس لا ربّا لهم، وتكون مسئولة أمامهم، على عكس ما في النظريات الدكتاتورية السابقة، حيث يخدم الناس أرباب الحكم وحيث لا يمكن لأي شخص مساءلة الحكومة.

رؤيتان، قديمة وجديدة، وكلاهما ناقص. فرؤيتنا القديمة عن الفلاح ينقصها الالتفات إلى الحرية السياسية والاجتماعية، والرؤية الليبرالية غفلت عن حرية الإنسان الداخلية. فالليبرالية لا يهمّها أن يكون الإنسان عبد ميوله ورغباته، ولكن يهمها أن لايكون الإنسان

عبداً للأنظمة السياسية. أما نحن، فالتفتنا قديمًا إلى عبودية الإنسان لأهوائه ورغباته، ولم يعننا أن يكون المجتمع والناس، كل الناس، عبيداً للحكومات. وما نقول به الآن هو نظرة جديدة مفادها الرجوع إلى القرآن والالتفات إلى احتياجات العصر، واستنباط منهج يشمل الحريتين المذكورتين معًا ويحفظهما. فنحن لا نستطيع أن ننفي أو نجحد الكثير من المعطيات المحمودة والمفيدة التي جاءت بها الليبرالية، ونحن نمتلك في المقابل الدين الذي أعطانا مفهوم الفلاح، والذي يمكننا من خلق منهج جديد يقف مقابل السائد أو المعطى؛ فليس من الإنصاف في شيء التمسك بالكليات التي نمتلك تمسكا أعمى بها.

● ***في شعر جلال الدين الرومي بيت مفاده: «هذا هو الفكر الذي شوه سمعة العقل». فهل توجهون بهذا المعنى نقدكم للفكر أو للعقل؟ ولم لا يحصل التكامل بين العقل والقلب على طريق اليقين والوصول، كما يقول بذلك أبو حامد الغزالي، أو كما جاء في العرفان العقلي عند ابن سينا وعند صدر الدين الشيرازي؟***

للعقل تعريفات كثيرة، وكثيرة هي البحوث في ماهيّته. وأرى أنّ على أيّ شخص يريد الخوض في هذا أن يحدد أولا أي مفهوم للعقل يريد: الأفلاطوني، الأرسطي، عقل المشائين، المسلمين، الاشتراكيّين، أم عقل ابن رشد وغيرهم؟ وعندي أن العقل هو المشترك بين الناس، الذي يصل فيما بينهم ويمكنهم من الاشتراك في

المعارف؛ غير أن هذا الفهم نسبي لأنه يتبع الموقع الذي يحتله الإنسان في التاريخ، لأن العقل لا يستطيع إيصالنا إلى الحقيقة المطلقة، وقد أقرّ المشاءون بهذا. نحن لا نستطيع بلوغ الكنه المطلق بالعقل، وقد ذكر العارفون أن ما يفهم من العقل كمصطلح يقوم بهذا الفهم في المطلق، إنما هو القلب لا العقل. وهنا تعرض مسألة جد دقيقة لابد من جلائها. فنحن إما أن نبقي على سلطان العقل من البداية وإما أن نضعه ونضع الإيمان في مقابله، فيأخذ هذا الإيمان الموضوع مقابل العقل في توجيه الإنسان أولا فأولا نحو الإيمان الكلي، ومن هنا يكون السلطان للقلب، كما عرفه العارفون، ويكون له وحده أن يقودنا إلى عالم ما وراء الطبيعة، بأن الوجود أكبر من المادة وأعم، وأن ثمة غيبًا في مقابل الشهود، وهي الأبواب التي يدخل منها القلب. إذا قبلنا بالعقل والقلب فإننا نستطيع بلوغ الإيمان، ولكننا إذا نبذنا العقل فلن نلبث أن نخرج الدين من ساحتنا بعد مدة قصيرة، لأن العقل آلة لا تتيسر الحياة من دونها. . فنحن بالعقل نصل إلى أصل الوجود الغيبي، وبه نرسخ الفهم عن الوصي، ومن ثَمّ تكفينا الرياضة ومجاهدة النفس للمضي قدمًا نحو الحقيقة. بيد أننا عندما نريد فهم الكون والوحي فإننا نتوسل بالعقل وسيلة، ولكن مع ملاحظة أن استنتاجاته نسبية الأمر الذي يحفظنا من الظن مثلا أن ما نفهمه من القرآن والسنّة هو عين الحقيقة. إن بوسعنا، في أزمنة متعددة وفي أمكنة مختلفة، أن نصل بالعقل إلى أكثر من فهم للنص، وهو أمر يتفق وجوهر الدين الذي يؤكد أن فكرنا الديني متطور ومتغير دائمًا.

● ***هل تبشرون البشرية التي تعيش في ظل حضارة شائخة، بحضارة فتية قادمة إن شاء الله؟***

إن شاء الله. فالإنسان باحث عن الحقيقة بالفطرة؛ وبالوحي الإلهي يمكنه الوصول، شريطة ألا يحسب أن ما يستنتجه ويستخلصه من النص الديني هو الدين نفسه، كما حدث في السابق. وأنا لا أشك في أن الإنسان سوف يتجه نحو «المعنوية»، تحت وطأة ما تورثه حياته المادية من آلام. نعم، لا شك عندي في أن الإنسان مقبل على تجاوز الحدود الضيّقة التي يعيش ضمنها كدنيا ـ مادة، إلى فضاء معنوي أوسع وأرحب هو الدين والإسلام.